أمثلة من الترجمة

Clemens Meyer
Die stillen Trabanten
Stories

S. Fischer Verlag, Frankfurt am Main 2017
ISBN 978-3-103-97264-1

صفحات 127-137

كليمينس ماير
"الأقمار الساكنة"

ترجمة نيفين فائق

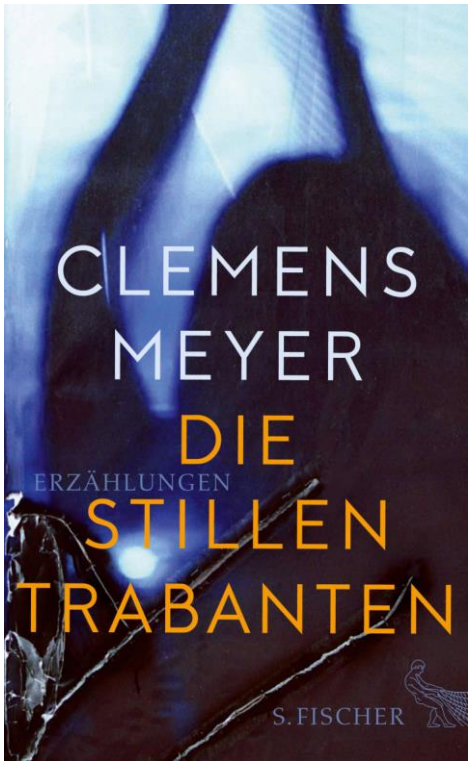

© 2018 Litrix.de

الأقمار الساكنة

كليمنس ماير
ترجمة نيفين فائق

كل هذا مضى عليه زمن الآن. أما أن يتجلى الآن، أن أتذكر تلك الليالي الطويلة - التي كانت في الحقيقة قصيرة، إذ كنا في فصل الصيف - وأن أتذكر تلك النهارات الطويلة، وتلك الليلة بعينها، فإن ذلك لا علاقة له بأن كل ما يحيط بالأمر مما هو سياسي أو ديني، أو أيّا كان اسمه، صار فجأة حاضرًا. فما هو الحاضر أصلًا؟ لا شيء. في تلك الأثناء نتواجد مرة أخرى في مكان مختلف تمامًا. وأنا أعرف تمامًا عما أتحدث، فأنا ملمٌّ بمسألة الحاضر، لأنني أدير مطعمًا للأكلات السريعة، في مبنى منخفض، له مظلة، كان في الماضي محطة بنزين.

كنت وقتذاك أسكن في إحدى البنايات متعددة الطوابق، إلى جوار الحديقة العامة، بالأعلى، في الطابق الرابع عشر، وحين كنت أنظر من إحدى نوافذ بيت الدرج، حيث كنت أدخن في المساء فأطل على المدينة، كان بوسعي تمييز مطعمي، رغم أنه كان على بعد كيلومترين. كنت قد طليت جدران محطة البنزين باللون الأحمر، كانت تلك فكرة رفيقي ماريو، عندما افتتحنا المطعم سويًا.

- "من هو ماريو؟ احكِ لي عن ماريو."
- "ماريو صديق قديم، كنا قد تعارفنا أيام الجيش."
- "متى التحقت بالجيش؟"
- "مضى على ذلك عدة سنوات، كنا نطبخ على متن إحدى السفن"
- "إحدى السفن؟"
- "نعم، إحدى السفن. كنا في القوات البحرية، شمالًا على الساحل. وكان ماريو طباخًا أسوأ حتى مني."
- "أنا لا أصدقك."
- "تلك هي الحقيقة. كنا نطبخ ونشوي كالمجانين."
- "لكنّ يديك يدا طباخ، وما تصنعه من الهمبورجر المخصوص وسلاطة البطاطا ..."
- "نعم، إنها جيدة، معك حق، إنها حقًا جيدة. أما سلاطة البطاطا فهي وصفة جدتي."

© 2018 Litrix.de

- "ماذا عن صديقك القديم ماريو؟ أين هو الآن؟"
- "أراد أن يعود إلى الساحل، جاءته فكرة إقامة مطعم عائم للأكلات السريعة."
- "مطعم عائم؟"
- "نعم، شيء من هذا القبيل على النمط السياحي. هكذا كان ماريو، دائمًا لديه أفكار مجنونة."

كنا نطل من نافذة بيت الدرج، ندخن، ونشاهد المدينة.

كنا نلتقي كل مساء تقريبًا، عند النافذة في بيت الدرج، فقد كانت تدخن سرًا.

كانت تسكن في الطابق ذاته، مع حامد، صديقها.

كان حامد أحيانًا يأتي في الظهيرة إلى مطعمي، يشتري شطيرة لحم ويشرب الكوكاكولا أو الشاي. كان يعمل في مقهى ضخم للإنترنت على بعد بضعة شوارع، حيث أقام العرب حيّهم. مع أن كلمة حيّ مبالغ فيها بعض الشيء، فقد كان في الحقيقة مجرد شارع واسع وطويل جدًا، يؤدي إلى الحدود الشرقية للمدينة، وعلى جانبي هذا الشارع كانت تصطف أكشاك الشاورمة، ومحلات الهواتف المحمولة، ومتاجر بيع وشراء الخردة، كما كانت هناك أعداد كبيرة من مقاهي الإنترنت. وفي مكان ما هناك، كان يوجد أيضًا مقهى الإنترنت الذي يعمل فيه حامد. لم أكن قد زرته في محلّه قط؛ فلم يكن ذلك بالمكان الذي يشعرني بالراحة. أغلب الظن أن مقهى الإنترنت الكبير كان ملكًا لابن عم حامد، إلا أن ذلك في الواقع لم يعنيني كثيرًا. كما أنني ظللت لمدة طويلة لا أعرف من أين كان حامد. من الكويت؟ من العراق؟ أم هو من لبنان؟ لكن ذلك أيضًا لم يكن في الحقيقة بهذه الأهمية، رغم أنني كنت كثيرًا ما أجلس في المساء مع ماريو إلى طاولة الخرائط على متن سفينتنا نطالع البلدان والبحار، ونشرب من قارورته المحفور عليها شعار السيف والدرع الخاص بالمخابرات السوفييتية، والتي كان قد اشتراها من أحد الضباط الروس. كان ذلك في نهاية التسعينيات، وكان الرجل العجوز، قائدنا - الذي لم يكن في الحقيقة سوى رئيس طباخي السفينة - يحكي لنا أحيانًا عن حرب الخليج الأولى، حين أبحر في البحر المتوسط قبالة "سواحل بلاد الشرق"، كما كان يسميها. كل ذلك مضى عليه زمن الآن، الحرب الأولى والثانية وكل شيء عمومًا. لكنني ذكرت ذلك سابقًا.

أول مرة جاء حامد إلى مطعمي، عندما كنت أفحص سجادتي قبل موعد انتهاء العمل بقليل. كانت السجادة تغطي الأرض من البار حتى الباب، وكانت تذكرني كل يوم بصديقي القديم ماريو، لأنها كانت فكرته هو، أن أضع سجادة في مطعمي، الذي كان في البداية **مطعمنا**. قال: "من أجل الراحة ، هكذا يشعر الناس بالارتياح على الفور، سيشعرون في الحال كأنهم في منزلهم، أو أفضل من ذلك، كأنهم على البساط الأحمر! كما أن ذلك مناسب تمامًا للطلاء."

لكنّ سجادةً حمراء في مطعم للأكلات السريعة لا تجلب إلا الحنق. كانت هناك طاولتان مرتفعتان من البلاستيك أمام البار، وحين كان الناس يأكلون الهمبورجر والنقانق، كان بعض الخردل أو الكاتشاب أوالمايونيز ينسكب على الأرض، وبالتالي على السجادة.

وفي الشتاء كان الناس يجلبون الثلج الموحل إلى مطعمي، ورغم أنه صار مألوفًا أن يقوم أصحاب الكلاب بجمع فضلات كلابهم في أكياس، ورميها في صناديق القمامة العامة، كان لايزال هناك كمًّا لا يستهان به من فضلات الكلاب في الشوارع، وكان كل هذا الوسخ، مع الثلج أو من دون الثلج، ومع الوحل أو من دون الوحل، يعلق بأحذية الناس، فتصير السجادة الحمراء الداكنة أكثر اتساخًا وأكثر دكنة مع الوقت.

كنت قد استبدلتها بالفعل عدة مرات، وفي نهاية كل شهر كانت تأتي شركة لتنظيف السجاد بماكينة مخصوصة لغسلها، وأغلب الظن أن ذكرى صديقي القديم ماريو هي التي جعلتني أتمسك بفكرة السجادة الخرقاء لوقت طويل.

"البلاط أفضل." قال حامد ذلك ففزعت. كنت أكشط السجادة بسكين شيّ الهمبورجر، حيث كانت في بعض المواضع قد تحجّرت مرة أخرى. التفتّ إليه وحاولت أن أداري السكين خلف ظهري، مع أنه لم يبد أنه رآه، لكنه كرر قوله: "البلاط أفضل."

دسست سكين شيّ الهمبورجر في الخلف داخل حزامي، استدرت للزائر المتأخر، فنظرنا معًا إلى السجادة، وقلت له: "نعم، البلاط ربما يكون أفضل."

حينئذٍ فقط أدركت أنني أعرفه من البناية متعددة الطوابق، وأنني قابلته هناك بضع مرات في الرواق أو في المصعد، فسألته: "الطابق الرابع عشر؟" ثم عرّفني بنفسه، وعرّفته بنفسي، وتصافحنا بالأيدي.

قال: "كنت أراك أحيانًا .. في الصباح الباكر .. مبكرًا جدًا .. كنت تنزل إلى هنا."

قلت: "نعم، باكرًا .. مبكرًا جدًا .. قبل انقضاء الليل تقريبًا."

قال: "كنت أعمل لفترة في أحد مواقع البناء، لذلك كنت أنا أيضًا أنزل مبكرًا جدًا من البيت."

قلت: " في الصيف أحب أن أمشي، أترك سيارتي هنا. نزهة جميلة عبر المدينة."

تلفت حوله وأومأ إليّ بالإعجاب، ثم قال: "مطعمك جيد، جيد جدًا. فكرت بما أننا جيران وأنا ..."

فقلت: "حسنًا، تقريبًا."

فأعاد مرة أخرى: "جيران". لم أدرك سوى لاحقًا أن تلك الفكرة، أي **كوننا جيران**، تمثل شيئًا مهما له، وأن التزاور وما إلى ذلك يعدّ تقليدًا، أوعرفًا قديمًا، هناك في بلاده.

قال: "وأنا أراك، تدخل هنا كل صباح."

قلت: "كل صباح". بينما طرقت على لوح إعداد المأكولات ثلاث مرات بسبابتي، على الأرجح لكي أؤكد أن الحال لابد أن يبقى على ما هو عليه، فيما يخص الاستيقاظ في الموعد، وشئون مطعمي وما إلى ذلك."

قال: "وبما أنني أفكر ..."

قلت: "تفضل. هل تريد أن تأكل شيئًا، أو تشرب القهوة؟ أنت في ضيافة المطعم."

أردت أن أقدّم له البيرة لكنني لاحظت المسبحة التي كان يمسك بها بين السبابة والإبهام في يده اليمنى. كان يحرك حباتها بين أصابعه بتؤدة أثناء الحديث.

قال: "هل عندك شاي أيضًا؟"

قلت: "نعم بالطبع. شاي 'إيرل جراي'."

علقت لافتة "مغلق" على الباب. كانت الساعة قد جاوزت الثامنة، فشربنا فنجانًا من الشاي سويًّا. تعيّن عليّ أولًا أن أدخل إلى غرفة التخزين في الخلف، لكي أحضر كيس شاي، فمعظم روّاد المطعم الذين يأكلون عندي كانوا يشربون القهوة أو البيرة أو الكوكاكولا، وحتى أنا لم أكن معتادًا على شرب

الشاي الأسود. كان حامد يريد أن يعرف كيف يدير المرء مطعمًا للأكلات السريعة مثل هذا، ومن أين أجلب اللحم والخضراوات، وإن كنت أبيع كذلك لحمًا غير لحم الخنزير.

قلت: "بالطبع، لدي هنا الكثير من اللحم البقري. حسنًا، ومع ذلك فإن الهمبورجر على وجه التخصيص مزيج بين الاثنين .. النصف والنصف."

قال: " النصف والنصف؟"

قلت: "أي نعم؛ نصفه لحم بقري ونصفه خنزير."

قال: "نحن المسلمون، كما تعرف ..."

قلت: "نعم، نعم. أعرف. ليس هناك مشكلة، عندي ... كلا انتظر ... التورينجيا الأصلية، بالطبع أيضًا تحتوي على لحم الخنزير."

فقال: "التورينجيا؟ هل هي تلك النقانق المشوية المشهورة؟"

قلت: "هل يعرفونها عندكم أيضًا؟ أعني هناك في بلادك؟"

ثم حكيت له عن محتويات نقانق التورينجيا، وعن طريقة تحضيرها، وكيف أشويها بمهارة على الفحم.

فسألني: "إذن، ليس عندك أي شيء من دون لحم الخنزير؟"

قلت: "بلى، بلى، عندي شرائح اللحم، إنه لحم بقري جيد."

وقفنا عند البار، على سجادة ماريو القذرة، نشرب شاينا. أشرت إلى لائحة الوجبات الكبيرة، المعلقة فوق الخزينة: "انظر، شطيرة شرائح اللحم الشهيرة الخاصة بي، شطيرة شرائح لحم الحادي عشر من سبتمبر."

رمقني وقال: "شطيرة شرائح لحم الحادي عشر من سبتمبر؟" ثم خفض رأسه وخلع نظارته. كان حليق الذقن، يضع نظارة مستديرة، ولا يشبه أحدًا من أولئك الملالي، الذين كنا نسمع عنهم كثيرًا آنذاك. أخذ يطالع قائمة المأكولات والأسعار، وضع نظارته المستديرة، ثم خلعها، ونظر إليّ، وابتسم.

قلت: "مزحة صغيرة. اسمها شطيرة نيويورك، كما ترى." أشرت إلى اللافتة، كنت أبيعها ب٣،٥٠. إنني أكره تلك الأسعار التي تنتهي برقم تسعة وتسعين.

الأفضل عندي هي الأسعار التي تنتهي برقم خمسين، أي ٣،٥٠ مثلًا، أو الأسعار ذات الأرقام الكاملة، مثل مارك واحد. الآن يورو بالطبع. لكنني كثيرًا ما أتذكر من أيام طفولتي، أحد أكشاك النقانق المشوية، كان بجوار إحدى دور السينما، وكان سعر النقانق عنده مارك واحد. لكن على المرء مواكبة الزمن، والبيع ب٣،٥٠ كان ليجلب مكسبًا ضئيلًا جدًا، لكن قهوتي ذات اليورو الواحد كانت من الكلاسيكيات. فهناك ما يكفي من مواقع البناء، وسيظل هناك منها الكثير، وفي كل صباح وفي منتصف النهار يأتي العاملون فيها.

"شطيرة شرائح لحم الحادي عشر من سبتمبر" كان لا يزال يبتسم ويهز رأسه.

"لابد أن تجرب شطيرتي من شرائح لحم الحادي ... نيويورك"

توجهت إلى الشوّاية في الخلف. كانت لدي هنا قطعة لحم طازجة موضوعة على ورق الألومنيوم، كنت أنوي في الحقيقة إعدادها عشاءً لي. كانت عندي شوّاية بالفحم وأخرى بالكهرباء. كان مطعمي صغير جدًا بالفعل، أدركت ذلك مجددًا حين وقفت أعد شطيرة شرائح اللحم لحامد، إذن فقد كانت كذلك محطة بنزين صغيرة للغاية فيما قبل، في ذلك الزمان عندما كان سعر النقانق المشوية ماركًا واحدًا. لم تكن كذلك شطيرة شرائح اللحم التي أبيعها ب٣،٥٠ مشهورة، بل كان معظم الناس يأتونني من أجل الهمبورجر المخصوص وسلاطة البطاطا.

انحنى حامد فوق لوح إعداد المأكولات وقال: "معذرةً، لكن ..."

قلت له: "ألم نكن قد رفعنا الكلفة بيننا؟ ثم ما الذي يستوجب المعذرة؟"

قطعت بعض الخيار والطماطم، لأنها تدخل ضمن مكونات شطيرة شرائح اللحم الخاصة بي، حتى وإن كانت شطيرة اللحم الشهيرة حقًا في نيويورك تمرّ من دون الخيار والطماطم.

كان صديقي القديم ماريو قد حدثني عن شطيرة شرائح اللحم. فقد قضى فترة في نيويورك في نهاية التسعينيات، أو هكذا ادعى على الأقل.

نظر بتوجس إلى الشوّاية وإلى لوح إعداد المأكولات، حيث كنت أقطّع الطماطم والخيار واللحم شرائح صغيرة، قال: "أريد فقط أن أسأل إن كان اللحم البقري والخنزير ... يجب ألا يلمس أحدهما الآخر."

قلت: "كلا، لكل شيء مكانه هنا." وأشرت إلى لوح إعداد المأكولات. "الهمبورجر هنا، ونقانق تورينجيا هنا، أما شرائح اللحم فأنا عادة ما أعدّها هنا على الشوّاية الكهربائية." لم يكن هذا صحيحًا، لم أكن أستخدم الشوّاية الكهربائية إلا إذا كانت لدي مشكلة مع شوّاية الفحم، أو إذا اضطررت لتحضير أكثر من صنف في الوقت نفسه، ولكن ماذا في الأمر أصلًا، لو أن شرائح اللحم التي أعدها لشطيرتي امتزجت بقليل من دهن الخنزير.

قال: "كلا، كلا. لا يجب أن تنظر إلى الأمر هكذا. إن حامد متحفظ جدًا بشأن هذا الأمر، نحن متحفظون جدًا بشأن هذا الأمر. نريد أن نبقى طاهرين."

"هل تظنين أن الله لا يحب نقانق التورينجيا التي أصنعها؟" وقفنا إلى النافذة ندخن. كنت قد فتحت النافذة الصغيرة كعادتي، بمفتاح البراغي ذي الرأس المربع، الذي كنت أحمله في سلسلة مفاتيحي. كانت النوافذ كلها مؤمَّنة، لكي لا يستطيع أحد القفز منها، وكانت أجهزة إنذار الحريق منتشرة في كل الطوابق، ما عدا في بيت الدرج، فقد كان أسمنتيًا، الجدران والسلالم أسمنتية، وكان عادة خاليًا وهادئًا، وهو أمر بدهيّ لوجود مصعدين، لكن في تلك المساءات كان يأتي المدخنون، الذين لم يعد مسموحًا لهم بالتدخين داخل الشقق، بسبب منع الزوج أو الزوجة ذلك، أو لأن عندهم أطفال. كانت أصوات نقر القداحات، وخبط الأبواب، والسعال، والأحاديث الهامسة، تتحرك أحيانًا ليلًا في بيت الدرج المضاء بالنيون، كما يتحرك دخان السجائر.

لفترة من الزمن، كنت- عندما أعود من مطعمي بعد انتهاء ساعات العمل - أصعد الطوابق الخمسة عشر جريًا على الدرج، لأنني كنت أعتقد أن عليّ فعل شيء من أجل لياقتي البدنية، فقد كنت أقضي اليوم كله واقفًا، ولأن طبيب الظَّهر كان قد قال لي إن صعود الدرج يحافظ على القدرات الحركية للفقرات القطنية.

راحت تدخن، وأزاحت حجابها إلى الوراء قليلًا، بحيث تدلت بعض خصلات من شعرها على جبينها. أغمضت عينيها، نفخت الدخان، وأبقت رأسها في الهواء، أمالته إلى الوراء، فطيّر الهواء خصلات شعرها. وقفنا إلى النافذة المفتوحة بينما راح الغسق يهبط على مهل، ومع ذلك كان لايزال هناك بعض

ضوء، تلونت السماء بالوردي والأحمر، وبدت كأنها ستضيء مرة أخرى، قبل حلول الليل بقليل، الوردي الفاتح، والأحمر الفاتح، تعجّبنا كم يمكث ضوء النهار، في تلك الليالي.

سحبت الحجاب مرة أخرى على جبينها، ثم مسحت بكلتا يديها على حجابها، للحظة بدا كأنها ستغطي وجنتيها بذلك القماش.

كان لديها بعض ندوب حب الشباب، كانت ظاهرة جدًا، لأن بشرتها كادت تكون بيضاء، قد يقول المرء مثل الطباشير، أو قد أقول **أنا** مثل شرائح الدجاج المسلوقة. ثم سحبت حجابها مغطيةً هذه العلامات والندوب على وجنتيها الشاحبتين. كانت تصغر حامد ببضع سنوات، في بداية، أو على الأكثر في منتصف العشرينات، طويلة جدًا، ونحيفة جدًا.

قالت: "الله عظيم، الله رحيم." وانحنت للأمام وضغطت السيجارة في المنفضة الصغيرة، التي كنت قد صنعتها من ورق الألومنيوم المفضّض، فقد كنت - عندما كنا نلتقي في بيت الدرج - دائمًا ما أحمل معي لفّة من ورق الألومنيوم، فأطفأت سيجارتي بجوار سيجارتها وكرمشت المنفضة، فحوّلتها إلى كرة فضية، كنت أريد رميها من النافذة. فأمسكت بذراعي.

"كلا. تخيل أن تصيب أحدًا بها."

"لكن بالأسفل توجد المظلة المقابلة للمدخل."

هزت رأسها وسحبت ذراعي، مع الكرة الفضية المطبقة، بعيدًا عن النافذة، قالت: "وإذا جاءت الريح، يمكن أن تقذف بها إلى أي مكان."

قلت: "إنها مجرد كرة من الورق المفضّض" ثم وضعتها في جيب سترتي ذات القَلَنسوة، وانزلقت يدها على ذراعي. كانت السترة ذات القَلَنسوة حمراء، في حمرة النبيذ، مثل مطعمي، وكنت قد طبعت عليها اسم مطعمي، اعتمرت القَلَنسوة وقلت لها: "الآن أغطي رأسي أنا أيضًا، لكي يكون الله راضيًا."

"لماذا تقول هذا؟ الله رحيم، الله عظيم."

رمقتني بنظرة جادة جدًا. بدت غاضبة بعض الشيء بالفعل. كنت كثيرًا ما ألقي مثل هذه المزحة، أثناء وقوفنا للتدخين في بيت الدرج. كان حامد يذهب في المساء إلى أصدقائه في "دويلة العرب"، هكذا كنا نسمي الحيّ الذي يوجد به مقهى الإنترنت، حيث كان يعمل، ومع ذلك لم يكن بإمكانها التدخين داخل

الشقة، في غياب حامد. رغم أن بعض أصدقاء حامد كانوا يدخنون، عندما يأتون في زيارة إلى بنايتنا متعددة الطوابق، إلا أن الأمر حينئذٍ يختلف.

قلت: "نعم، أغلب الظن أنه رحيم جدًا، وأنه لا يعارض كونك تدخنين." مددت لها يدي بعلبتي مرة أخرى. أخرجَت لنفسها سيجارة، وكذلك أنا أشعلت واحدة أخرى لنفسي. قلت إنني سأصنع منفضة جديدة من الورق المفضض، حالًا. جلسنا على الدرجة العليا من السلم، دوّت خطواتنا في بيت الدرج، وسُمع ضجيجٌ على بعد عدة طوابق بالأسفل، كأنما كان أحدهم يرد على خطانا، وخبط أبواب، ومدخنون ليليون، لم يريدوا النزول للتدخين بالخارج أمام البناية، رغم أن الضوء لم يكن قد غاب بعد، في تلك الليالي الطويلة القصيرة.

قالت: "في القرآن لا يوجد ذكر للسجائر"، أومأت إليّ، ونفخت دخانها، وأطبقت على سيجارتها بشدة بين السبابة والإبهام، حتى تسطّح الفلتر من شدة الضغط، حينما وضعت السيجارة بعد بضع دقائق في المنفضة الجديدة، التي كنت قد وضعتها في المنتصف بيننا على الدرج الأسمنتي، وحيث كانت سيجارتي أنا أيضًا تَدْخِن، بل كاد الفلتر أن يحترق. كرمشت المنفضة المفضضة مرة أخرى، قبل أن تستطيع هي إطفاء سيجارتها التي لا ذكر لها في القرآن، فتصاعد خيط دخان رفيع جدًا من الغلاف الفضي للكرة الفضية. دسست المنفضة المكرمشة إلى جوار الأخرى في جيب سترتي ذات القَلَنسوة. شعرت بالورق المفضض الخشن دافئًا بين يدي، فضغطته أكثر. قامت، وقمت.

قلت: "عليّ أن أخرج مبكرًا. سلامي إلى حامد." وقفنا، مولين ظهرينا للباب الذي يؤدي إلى طابقنا، نطل على درج السلم المؤدي إلى الطوابق السفلى. لاحقًا في هذه الليلة، تمشيت أيضًا قليلًا في الحديقة العامة، وشربت زجاجة بيرة، لأنني لم أتمكن من النوم، وعددت طوابق بنايتنا، وحاولت أن أجد النافذة، التي كنا واقفين عندها آنفًا.

"أنا ... أنا سأذهب إذن. سلمي على حامد." ألم أكن قد قلت ذلك للتو بالفعل؟

أردت أن أمد لها يدي، أكاد أكون رفعتها فعلًا، لكنني تخليت عن الفكرة.

عندما ذهبت إلى شقة حامد لأول مرة لشرب الشاي، مددت لها يدي، لكنها تراجعت بضع خطوات إلى الوراء، خفضت رأسها قليلًا، وقالت: "آسفة، لكن الله لا يريد ..."

قلت: "آسف، نسيت أن الله لا..." ألم تكن يدها قبيل ذاك على ذراعي؟ خطوت خطوة إلى الوراء، كان ورائي الباب، الذي يؤدي إلى الطابق الخامس عشر. ثم عدت وخطوت ثانيةً باتجاهها، ورفعت يدي حتى مستوى ارتفاع الصدر، ثم أعلى قليلًا، وكادت كفي أن تلمس وجهها، قبل أن أُنزِلَ يدي مرة أخرى.

قالت: "لا" واحمرّ وجهها قليلًا، كما بدت ندوب حب الشباب في وجهها حينئذٍ أوضح، كادت تضيء على وجهها. وتزحزح حجابها بشدة عن جبينها.

مرة أخرى قالت: "لا". فقد كانت تسكن مع حامد في الطابق نفسه الذي أسكن فيه، على مسافة لا تتعدى بضع شقق. كانت قد أتت هنا من المدينة، ولم تكن تؤمن بشيء، كانت تمد يدها للجميع، حتى قابلت حامد. لا أعرف بالضبط أين التقيا وكيف تعارفا. بلى، كنت أعرف، كان حامد قد حكى لي عن ذلك، ولكن لماذا أنشغل أنا بقصتها من الأساس؟. كان صديقي القديم ماريو - الذي عاد إلى الساحل، ليؤسس مطعمًا عائمًا هناك - ليقول لي: " ما شأنك بها هذه؟"

وكنت لأرد عليه قائلًا: "لا شيء يا ماريو، كيف يقودك تفكيرك إلى ذلك؟

وحين جاء حامد إلى مطعمي للمرة الأولى، وأعددت له شطيرة شرائح لحم الحادي عشر من سبتمبر، لم أكن لأتخيل أنني سوف أزوره بعد فترة وجيزة في مسجده، الذي كان موجودًا في مكان ما في مدينتنا، ولم أكن قد رأيته قطّ. لم أكن أعرف أصلًا بوجود مسجد في مدينتنا. وعندما كنت هناك، لأنني كنت أريد رؤيتها **هي** في المسجد، لأنها كانت تذهب مع حامد إلى المسجد، كل يوم أحد، وأحيانًا خلال أيام الأسبوع كذلك ...، لكن اختلط علي أمر الأوقات، فقد مضت أسابيع وشهور بالفعل، وشربت مع حامد الشاي في شقة حامد، ودخّنت سرًّا مع صديقته في بيت الدرج، عند النافذة، قبل أن أخطو خطوة واحدة إلى داخل المسجد، لكنني كنت قد قلت من قبل إن الحاضر لا شيء أصلًا.

"في هذا التوقيت تقريبًا ترين أضواء الأقمار."

"غير مسموح لك أن تلمسني، وغير مسموح لي أن ألمسك، فإن الله ... "

"أعرف، أعرف، إنني فقط أريد ..."

"أي أقمار، وأي أضواء تعني؟ ضوء القمر؟"

كانت قد جلست على درج السلم.

قلت: "هذا أيضًا، لكنني أعني البنايات التي ... سيستغرق الأمر بضع دقائق أخرى. عندما تصير الظلمة حالكة."

قالت: "لا بد أن أذهب لحامد"، وأدارت نحوي رأسها، الذي كانت تسنده على يديها، بحيث كانت يداها موضوعتين على وجنتيها، تغطيان ندوب حب الشباب. قالت: "اقترب موعد عودة حامد إلى البيت."

جلست إلى جوارها وكررت قولي: "ابقَي بضع دقائق فقط. إن نهار الصيف طويل جدًا."

سألتني وهي تنظر إليّ: "هل الليالي الآن أطول أم أقصر؟"

قلت: "لا أعرف"، ودسست يديّ في جيبَي سترتي ذات القَلَنسوة.

لا كرات مفضضة دافئة. كنت قد أحضرت منفضة زجاجية، كانت موضوعة على إحدى درجات السلم أمامنا.

قلت: "لا أعرف. إن الليل يبدأ عندي حين تنتهي ساعات العمل، أي في الثامنة مساءً، سواء كانت السماء مضيئة أو مظلمة."

فأجابت مترددةً: "إذن فإن الليالي ... هل هي متساوية؟"

قلت: "كلا، ليست كذلك"، ووضعت يدي على كتفها، قريبًا جدًا من رقبتها، عند تلك الزاوية، حيث توجد تلك الانحناءة الخفيفة، مرتفَع دقيق بسيط، عضلة أوشيء من هذا القبيل، توصل إلى الرقبة، صعود بسيط لا أعرف كيف أسميه.

لاحقًا، في الحديقة العامة، حيث صرت أتمشّى كل ليلة تقريبًا، عندما يكون الظلام قد حل أخيرًا، عددت طوابق بنايتنا، وتذكرت عظام كتفها المدببة، وفي الصباح التالي، عندما وضعت قطعة من كتف على الشوّاية في مطعمي، بقرة كانت أم خنزير، لا يهم، بسطت يدي وتحسست اللحم الذي كان لايزال مجمّدًا بعض الشيء، فوجدتها ها هنا، عظام الكتف تلك ... ملست على كتفها الباردة. تصاعد دخان الفحم إلى عينيّ. كنت مرهقًا، وكنت بحاجة إلى صديقي القديم ماريو، الذي كان مع مطعمه العائم في مكان ما في الساحل، وقد أعلن إفلاسه على الأرجح. فكرت في حامد، صديقها، الذي كانت غالبًا ما تسميه "زوجي".

"عليّ أن أذهب إلى البيت، عليّ أن أذهب إلى زوجي."

"من أين أتيتِ؟"

"ماذا تعني؟ من أين ... أتقصد الآن؟ ماذا تعني؟" كانت تنظر إليّ، أما حجابها فكانت قد سحبته على وجنتيها، كأنما كانت تخجل من ندوب حب الشباب، التي تخدّد وجهها بالحمرة.

"أعني ... كيف ... من أين أتيتِ؟ من هنا من المدينة؟ أم من مكان آخر؟"

مرة أخرى جلست إلى جواري على السلم، رجعت من عند الباب، الذي كانت لتوّها تريد أن تختفي عبره.

"كان حامد يعاملني معاملة طيبة جدًا، إن زوجي يعاملني معاملة طيبة جدًا."

أومأت إليها: "نعم، حامد لا بأس به."

حكت عن عائلتها، ومن أين أتت، من هنا من المدينة.

ثم قالت: "إن حامد يحبك بالفعل جدًا"، وأسندت رأسها مرة أخرى على كفيها، وأخفت ندوبها الحمراء، بينما هي جالسة على السلم. وكنت أنا لا أزال أمسك بعلبة السجائر في يدي، عندما وجدت نفسي واقفًا في شقتي. "أتريدين واحدة أخرى؟" كانت الورقة الرقيقة الشفافة التي تغلف العلبة رطبة ودافئة، أمسكت بها لمدة طويلة إلى هذا الحد، كذلك كفي كانت رطبة، رميت العلبة على الأريكة، حيث بقيت إلى جوار صحف الأيام والأسابيع الماضية، التي كنت أقرأها كل صباح هنا، قبل أن أذهب إلى مطعمي. كنت دائمًا أقرأ الصحيفة في اليوم التالي بعد صدورها، أحضرها معي في المساء، أرميها على الأريكة، ثم أقرأها في الصباح التالي. غالبًا ما كنت أستيقظ قبل أن يدق جرس المنبه. لكنه لم يكن سوى هاتفي المحمول، رنة خاصية الإيقاظ، فإن منبهي المفضل - ذلك الكائن الميكانيكي البدائي، الذي كانت جدتي قد أهدتني إياه منذ سنين طويلة - كان الآن مع صديقي القديم ماريو هناك على الساحل، حيث كان يجرب شيئًا ما من قبيل مطعمٍ عائم. فلطالما كان يحب منبهي جدًا، ذلك الشيء الذي كان يقيمنا من أسرّة عنبر النوم على متن تلك السفينة، قبل أن تتولى خاصية الإيقاظ في الهواتف المحمولة تلك المهمة، كنت قد أهديته ذلك الشيء الضخم، حين عاد إلى الساحل، حيث كنا ذات يوم نطبخ للقوات البحرية كلها.

فأحيانًا يضيع المرء في الوقت، ويحتاج إلى بضع ثوانٍ، لكي يحدد موقعه من جديد. على الأرجح كان الوقت صيفًا. دخنت ونظرت إلى الأقمار المعتمة، التي لا يكاد المرء يميزها، إذ كانت آخر أشعة ضوء في النوافذ قد خبت، بعيدًا، خلف الحديقة العامة.

"إِذَا السَّمَاء انفَطَرَتْ، وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ، وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ ... "

قلت : "حسنًا، حسنًا. ماذا أفهم من هذا؟

فرد حامد: "أن الله موجود، وأنه يخلصنا. مازال للقول بقية ..."

فسألته: "بقية؟ بعد الخلاص؟"

قلبت قطعتين من شرائح اللحم والتفت مرة أخرى لحامد، الذي كان متكئًا على البار، يشرب شاي إيرل جراي. عند الطاولة المرتفعة الكبيرة كان يقف اثنان من عمال البناء، يدخنان ويشربان البيرة، التي كنت قد بعتهما إياها قبل بضع دقائق. قلبت شرائح اللحم لهما أيضًا. انقضى وقت العمل، ومرة أخرى أخذ الظلام يهبط على مهل. هل كنا لا نزال في الصيف، والنهارات تتداخل مع الليالي؟

"لا" - قال حامد - "السورة، هل تفهم؟ لازال للسورة بقية، السورة التي تتحدث عن ... ماذا أسمّيه ... الانفجار، حين تتكسر ال ... "

قلت: "الانفطار، تعني الانفطار وليس الانفجار، سورة الانفطار، رقمها لا أدري كم وثمانون."

قال: "كيف أنت ... كيف لك أن تعرف عن السورة؟"

قلت: "نعم، نعم، يدهشك الأمر، أليس كذلك؟" استدرت وأكملت إعداد إحدى نقانق التورينجيا، كنت قد وضعتها على شوّاية الفحم لشخص ما، كان قد خرج مرة أخرى لتدخين سيجارة، قبل أن أتمكن من تقاضي ثمنها منه، ثم مضى بعد ذلك ببساطة، رغم أن نقانقي كانت تبدو جيدة، ورغم أن نقانق التورينجيا التي أصنعها كانت بمثابة أسطورة في هذا الحيّ، في المدينة. كان صديقي القديم ماريو - الذي أفتقده كثيرًا في هذا التوقيت - ليقول لي: "صديقك الشرقي الجديد لا يجدي نفعًا لهذه التجارة"، والأرجح أنه على حق، ولكنه من الناحية الأخرى كان يجر معه أشكالًا عجيبة، حين كنا لانزال ندير المطعم سويًّا، قبل أن يسافر عائدًا إلى الساحل، لكي يفتتح هناك مطعمًا عائمًا أو شيئًا من هذا القبيل. كان لماريو بعض

الأصدقاء، داخل، وعلى أطراف دويلة العرب، كانوا يبيعون القماش. كان صديقي القديم ماريو يلتقط بين الحين والآخر شيئًا من تلك البضاعة، التي كان أصدقاؤه يتجوّلون بها، لكن ذلك لم يمثّل أي مشكلة قط.

قال حامد بلكنة أجنبية: "ليس بشرًا ... من دون الله، ليس البشر صالحين. إنكم تنكرون الآخرة."

فردّ صديقي ماريو: "أخرج أنت نفسك من هذا الشأن، أيها العربي. الأفضل أن تهتم بشأن امرأتك مغسولة الدماغ، كيف ... "

فقلت: "اسكت أنت يا ماريو."

وضعت شرائح اللحم التي كنت أعدّها لعاملَي البناء، الواقفَين بالخارج، ينتظران، ويدخنان - في وقت الراحة بعد انتهاء ساعات العمل - على صحنين من الورق المقوى، وقطعة خبز فوقها، أدرت في آنيتي صلصتي المخصوصة من الخردل لشرائح اللحم، وقلبت شرائح اللحم، أنا أيضًا أوشكت ساعات عملي على الانتهاء، وقد أوشك الفحم أن ينطفىء، فلم يبق سوى كومة صغيرة من الجمر، بالكاد يمكن تمييزها تحت قبّة الرماد المُبيَضّ التي تغطيها، هي التي كانت تسخّن وتشوي اللحم، الذي كنت قد اشتريته في الصباح من متجر الجملة.

قلت: " يا أَيُّهَا الإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلاقِيهِ"، ثم وضعت قطعتي شرائح اللحم مع الخبز - وهي ليست نفسها شطيرة شرائح اللحم الخاصة بي - على طبقين من الورق المقوى. تفكّر حامد قليلًا وأومأ إليّ، وضع كوب شاي الايرل جراي المصنوع من الورق المقوى على البار، ونظر إليّ ثم حرك مسبحته بين السبابة والإبهام.

قلت: "فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا"، حاولت أن أتذكر الصياغة الدقيقة، ومددت يدي بالطبقين المصنوعين من الورق المقوى إلى عاملي البناء، اللذين كانا يراقبانني من خلف الزجاج جائعين، ثم جاءا إلى الداخل.

قلت: "وَيَنقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا"، ثم أدار الاثنان ظهرهما لي مرة أخرى، ورفعا يديهما مودّعين إياي، وأنا أيضًا ودعتهما، ورأيت كيف كانا يتحدثان بالخارج، يتهامسان، ويميل جسد كل منهما نحو الآخر، كأنما كان بوسعي أن أسمعهما عبر زجاج مطعمي، ثم التفتا لي برهةً مرة أخرى. هل كانا يضحكان، أويبتسمان ابتسامة عريضة؟، قبل أن ينعطفا إلى أحد الشوارع الجانبية.

قال حامد: "وَيَصْلَى سَعِيرًا"، بينما رحت أنظف الشوّاية وأرتب لوح إعداد المأكولات، فوافقته: "فَلا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ، وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ، وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ ..."

هل كان عليّ أن أخبره، أنني اشتريته، ذلك الكتاب، من متجر في وسط مدينتنا، لأنها؛ زوجته ...

هل كان عليّ أن أخبره أنني قرأته، لأنني أردت أن أفهمها **هي؟**

"من أين أنتِ؟"

وحكت لي قصتها.

وابتسم حامد، وعانقني، عندما خلعت مئزري، وخطوت نحوه عند الطاولة البلاستيكية المرتفعة، التي كان قد وضع مسبحته عليها. قال: "لقد حان الوقت، حان وقت الصلاة، هل عندك ..."

فقلت: "سجادة؟"

قال: "أجل، شيء من هذا القبيل."

لكن حامد ركع بالفعل على البلاط. كنت قد نزعت السجادة الحمراء - التي كان صديقي القديم ماريو قد أوعز إليّ بوضعها - في نهاية الأسبوع الأسبق، وقمت بتركيب البلاط. كان حامد قد دبّر لي شخصًا، عربيًّا، أو شيئًا من هذا القبيل، يقوم بذلك العمل بشكل غير رسمي. لكن حامد أراد الآن أن يصلي، وكان البلاط عندي صلب، وكان إلهه يحب السجاجيد.

"سجادة ... انتظر قليلًا". توجهت إلى غرفة الكراكيب بالخلف، فوجدت بالفعل قطعة متبقية من لفّة سجادتي الحمراء، التي ظللت لمدة طويلة أفرش بها أرضية مطعمي. لو يعلم ماريو أن ما تبقى من سجادته الحمراء، التي كان مولعًا بها، سوف يستخدم سجادةَ صلاةٍ لعربي ... "أن تأكل على السجادة الحمراء، إنها دعاية ممتازة، أتفهم، أي أن تأكل مثل نجوم السينما!"

"نريد أن نفتح مطعمًا للأكلات السريعة يا ماريو."

"حسنًا بالتأكيد. المطعم ذو السجادة الحمراء. اللون الأحمر، أتفهم؟ بالإنجليزية Eye-Ketchup!"

"صلصة الكاتشب؟ ماذا تعني يا ماريو؟"

"على غرار Eyecatcher ، بالإنجليزية أي الملفت للنظر. أتفهم؟ اللون الأحمر. مطعمنا!"

"نعم، مطعم للأكلات السريعة يا ماريو."

"Eyecatcher!"

ونزل حامد على قصاصة السجادة الحمراء التي كنت قد قطعتها بسكين تقطيع شرائح اللحم عن بقية اللفّة. صلّى هناك على البلاط الجديد في مطعمي الصغير، وأخذ يتمتم بتلك الكلمات والجمل الغريبة، بلغته الغريبة. ظل بعض المارة واقفين، ينظرون عبر الواجهة الزجاجية الكبيرة، ومررت أنا بحذر إلى جوار حامد، وعلقت لافتة "مغلق" على الباب.

تلك الإنحناءات ... وكل تلك النصوص الشعرية الدينية، كانت تحفظها عن ظهر قلب، بعضها بلغة حامد الأجنبية، وبعضها بلغتنا، وكانت تركع. وقفت معها، وقد ركعت، قعدَت في رواق بنايتنا متعددة الطوابق، رأسها نحو مكة، أو إلى حيثما اعتقدت أن تلك المدينة كانت تقع، انزلق قميصها، كانت دائمًا ترتدي قمصانًا فضفاضة، وسراويل أو تنورات فضفاضة، رغم أنها كانت نحيفة بارزة العظام، انزلق قميصها الفضفاض، بينما كانت تضغط الجزء العلوي من جسدها على أرض البناية. أردت أن أقعد إلى جوارها، أن أستلقي إلى جوارها، وأن أركع وراءها، نعم أردت هذا أيضًا.

كان صديقي القديم ماريو ليقول: "ما شأنك بها **هذه؟**"

وكنت لأجيبه: "لا أعلم. هو هكذا كما يكون أحيانًا يا ماريو." فأومأ إليّ ماريو، وربت على كتفي، قال: "ليكن إذن كما يكون أحيانًا."

لم أكن يومًا أولي اهتمامًا للدين أو ما شابه. كانت جدتي، التي ورثت عنها المنبه ووصفة سلاطة البطاطا، تصطحبني في ليلة عيد الميلاد إلى الكنيسة، حين كنت لا أزال صغيرًا جدًا، لكن الأمر لم يتعد ذلك قط. وحين كنت في تلك الليالي، وهذه المساءات، أقرأ في ذلك الكتاب، الذي اشتريته من أجلها، كانت تلك عوالم بعيدة، مثل **سندباد البحري** أو **علي بابا واللصوص الأربعون**. "سندباد؟ علي بابا؟ إنها قصص للأطفال!"

"فلتسكت أنت يا ماريو، أو فلترجع وتساعدني في شئون المطعم."

"تقصد في شئونها **هي**."

"كلا، لم أكن لأطلب منك المساعدة في هذا الشأن بالتأكيد."

"لم أفهم يومًا كل تلك الترّهات المتعلقة بالدين وما إلى ذلك، هي عندي مثل قصص **سيد الخواتم**."

"ألم أقل، سندباد، وعلي بابا." أساطير كنت قد قرأتها وأنا طفل صغير أو عرفتها من السينما أو التلفاز.

قالت: "كلا، لا يجب أن ترى الأمر كذلك، نحن نريد أن نبقى طاهرين أمام الله، إنه يتحدث إلينا كل يوم."

"لا تسيئي فهمي، إنني أقدّر ذلك، ولكن ..."

"يريد حامد أن تأتي معنا، إلى مسجدنا."

"أتظنين أن ذلك ممكنًا؟ يسعدني أن أفعل ذلك ذات مرة. وستأتين أنت أيضًا معنا، أليس كذلك؟"

"بالطبع."

"حسنًا، إذن. لكن عليّ أن أقول لك بمنتهى الصراحة إن ..."

"لا يهم"، نظرت إليّ وهزت رأسها وأومأت إليّ. كان فيها شيء من التصلب وشيء من التساهل في الوقت نفسه. وكانت ندوب حب الشباب على وجهها الأبيض تتوهج بالحمرة . جلسنا على الدرج ندخن. كانت النافذة مفتوحة، وكان الظلام قد حلّ بالخارج، والريح تصفّر في بيت الدرج. هل كنا في آخر الصيف، أم كان الخريف قد حان بالفعل؟ لاحقًا، حين هبط الثلج، وكنت أبقى في مطعمي و أعمل حتى الليل - إذ كنت قد مدّدت ساعات العمل، وصرت أقدّم النبيذ الساخن - كنت أفكر، هل أطلعتها على الأقمار الساكنة؟ تلك البنايات متعددة الطوابق على أطراف المدينة، التي كانت أضواؤها تخبو على مهل خلال الليل، شقةً شقة، نافذةً نافذة،

وكنت أرانا واقفّين عند النافذة، وأعد الطوابق، حين كنت أعود إلى البيت، وأقف أمام البناية، لأدخن سيجارة وقت الراحة بعد انتهاء ساعات العمل، رغم أن الطقس كان باردًا، وأنني كنت أضرب الثلج بقدميّ الباردتين.

"أين الشرق؟"

"لا أعرف بالضبط، ربما هناك؟"

"عليّ أن أصلّي باتجاه الشرق."

"أعرف ذلك"، لمست وجهها. تحسسَت أصابعي بحذر ندوب حب الشباب، التي كانت تخدّد وجهها بالحمرة .

كان حامد كذلك قد سأل: "أين الشرق؟" قبل أن يستقر على القصاصة الحمراء، التي كنت قد وضعتها أمامه على البلاط.

"لا أعرف بالضبط، ربما هناك؟"

بعدها، حين كانا يصليان، أدركت أنهما في الحقيقة يصليان باتجاه الشمال، أو بالأحرى الشمال الغربي، لأن الشارع الكبير الذي يطل عليه مطعمي، كان يؤدي إلى خارج المدينة باتجاه الشمال، وكذلك الرواق في بنايتنا متعددة الطوابق، حيث كنا نلتقي، كانت وجهته إلى الشمال الغربي، بل أكثر ميلًا إلى الغرب من الشارع، وخلف الحديقة العامة، التي كنت أسترشد بها، كانت توجد تلك الأقمار، هناك تعالت الضاحية السكنية الجديدة، تلك البنايات متعددة الطوابق على أطراف المدينة، التي كانت الشمس تغرب خلفها. بلاد المغرب.

مسّدتُ وجهها، وكانت هي هادئة تمامًا، ثم وضعْتُ رأسها على كتفي. احتضنتها وضممتها إليّ بقوة، وسيجارتانا تدْخِنان أمامنا على درج السلم في المنفضة الزجاجية، التي كانت قد حلت محل المنفضة المفضضة منذ حين، حتى بلغ اللهب الفلتر ثم خمد.

كنت أودّ أن أرى شعرها، أن أمرر أصابعي بين خصلاته، كان شعرها قصيرًا، أشقر مائلًا إلى الحمرة، لم يكن يظهر سوى من جانبي الحجاب، أحيانًا كانت تظهر بعض أطرافه على جبينها.

كانت يدي على حجابها، فقالت: "لا، لا"، ودفعت يدي بعيدًا، فعانقتها مجددًا، ضممتها إليّ بقوة، فسمحت لذلك أن يحدث، ضغطَت جسدها على جسدي، شعرت بثقلها عليّ وفوقي، رغم أنها كانت نحيفة جدًا وبارزة العظام.

لاحقًا أيضًا، بعد ذلك بكثير، ليس في هذا المساء، ولا في المساء التالي، عندما استلقت عاريةً إلى جواري، عندما استلقت على سريري، وكان شعرها لايزال تحت حجابها.

"أثناء الطبخ، كنا نحن أيضًا نرتدي غطاء للرأس، هل مازلت تذكر؟"

"لكن ذلك شيء مختلف تمامًا يا ماريو."

"حسنًا، فكر بالأمر."

"بماذا أفكر؟"

"بكل هذه الترهات المتعلقة بغطاء الرأس. أعني، إن الطبخ من دونه غير صحي. فمن ذا الذي يريد أن يجد شعرةً في شرائح اللحم؟ لكن بحق السماء ما الذي يهم الله ...؟"

"منذ متى وأنت تؤمن بالله يا ماريو؟"

"معك حق. ولكن كيف يكون ذلك أثناء العلاقة الجنسية؟ الجزء العلوي بدون، والجزء الأعلى مغطى؟"

نظرت عبر الباب الموارَب لمصلى السيدات، الحجاب تلو الحجاب، والآن ركعن ثم سجدن، وتحت أحد الأحجبة كان شعرها الأشقر المائل إلى الحمرة.

حاولت أن أميزها بين حشد المصلين، كانت قد اختفت لبضع دقائق في الشقة المجاورة لمصلى الرجال، كانت قد التفتت مرة أخرى لي ولحامد وابتسمت. ابتسامتها، وحمار ندوب حب الشباب الخفيف، تلك الندوب التي كانت تبدو واضحة على وجهها عندما كانت ...

كانت الشقتان، اللتان يسمونهما **المسجد** تقعان في الطابق الثالث، في إحدى البنايات السكنية المتهالكة غربي هاتيك الأقمار، التي كنا نراها في تلك الليالي. لم أكن أعلم أن النساء والرجال يصلون في شقتين منفصلتين. وحتى بعد الصلاة الكبرى، حين استقبلوني؛ استقبلوا ضيفهم، عندما جلست معهم على الأرض، وعندما أكلت معهم فوق الحصيرة البلاستيكية، لم تظهر هي مرة أخرى. ومرة أخرى خرجت إلى بيت الدرج لكي أراها. رأيت السيدات والأطفال من خلال الباب الموارَب، هنا أيضًا كانت الصلاة قد انتهت وتم إعداد الطعام. أين كانت؟ لمس أحدهم كتفي. كان حامد واقفًا ورائي، قال: "عد وتناول طعامك يا صديقي، أنت ضيفنا اليوم. إن الله يرانا، ويحبنا." لفّني بذراعه وعدنا إلى قسم الرجال بالمسجد. فهمت ذلك الفصل، هذا التقسيم، فكرت فيه مليًّا، بينما كنت أقعد مع العرب على الأرض أتناول الأرز واللحم، الذي كان مذاقه أقرب إلى طعم الضأن، وكان استواؤه ناقصًا بعض الشيء، وشربت الشاي الثقيل المحلّى. لو كانت قد جلست في أي مكان أمامي، أو إلى جواري، أثناء الصلاة، أو أثناء تناول الطعام، لكن لاسيما أثناء الصلاة، لما كنت - لو أنني كنت مؤمنًا - أعرت الله بصرًا ولا سمعًا. بينما كانوا يصلون، وكان كاهنهم - أقصد إمامهم - يتحدث، وأنا لا أفهم كلمةً، كنت أتكئ على الجدار في الخلف، كنت قد خفضت رأسي، حين ركعوا، خفضت رأسي إلى صدري، لكي أبدي احترامًا، **لسيد الخواتم**، بغض النظر. كنت قد أحضرت معي كتابي الذي اشتريته قبل بضعة أسابيع، لأنني كنت أودّ أن أفهم، ما الذي تؤمن به؛ كنت قد وضعته على ركبتيّ، وأثناء ما كان العرب يصلّون، لاحظت أن صفحاته كانت ملطخة ببقع الدهن. الغمغمات والأصوات الغريبة حولي، وأمامي. كنت قد قرأت الكتاب على لوح إعداد المأكولات، بأصابع دهنية، بينما كان اللحم يبقبق على شوايتي. ثم كنت قد مضيت في القراءة في البيت، ومضيت في القراءة في بيت الدرج، أثناء انتظاري لها، وعندما كنت أسمع خطىً في الرواق - خطاها؟ - كنت أدس الكتاب في حزام سروالي، تحت سترتي ذات القَلَنسوة. " أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ..."

هل كنت قد أطلعتها على الأقمار الساكنة؟ التي كانت أضواؤها تخبو على مهل بالليل، شقةً شقة، نافذةً نافذة، حين كان الليل يتقدم، حتى لم يعد شيء يُرى، سوى هياكل البنايات المرتفعة، بعيدًا خلف الحديقة العامة.

قالت: "إن الله غاضب، الله يكرهني." كانت تقف أمام باب شقتي، وقد لاحظت على الفور أنها ثمِلة. كان حجابها منزلق إلى الوراء، وقد انسدلت خصلات شعرها الشقراء المائلة إلى الحمرة على جبينها. لم أكن قد رأيت شعرها هكذا من قبل، ولو لم تكن ثمِلة، لكنت أزحت خصلاتها الشقراء المحمرّة من على جبينها. كان وجهها أبيض تمامًا، شاحبًا مثل الطباشير، هكذا قد يقول المرء، أو مثل شرائح الدجاج المسلوقة، هكذا قد

أقول **أنا**. وكانت ندوب حب الشباب على وجهها تتوهج أكثر من المعتاد. قالت: "إن الله غاضب، إنه يكرهني."

قلت: "لا تقولي هراءً"، وحين تقدمت نحوها، وأردت أن أدخلها إلى شقتي، هوَت نحوي. كانت تفوح برائحة السجائر، والحانة، والخمر.

دفعت الباب بقدمي، وأدخلتها إلى غرفة معيشتي.

حاولت أن تفلت من بين يدي، وبدأت تبكي، كانت تريد أن ترطم رأسها بالحائط، لكنني أمسكت بكتفيها، وسحبتها باتجاه الأريكة.

قلت: "كل شيء على مايرام، اهدأي، اهدأي. كل شيء على مايرام"، ثم ربت على كتفيها وعنقها، الذي كان يغطيه طرف حجابها المدبب.

كانت هناك، في مكانها الأصلي، حيث كانت لتكون، لو لم تقابل حامد. ضبطْتُ وضع حجابها، ورفعت شعرها من على جبينها، حاولت أن أمدّدها على الأريكة، لكنها كانت تريد أن تستقيم في جلستها مرة أخرى، احتضنتني وتحدثت بصوت خفيض على صدري، على الجزء العلوي من جسدي. قلت: "لا بأس، كل شيء على مايرام. لابد أن تنامي الآن."

شعرت بقميصي، كم كان مبللًا. تدحرجَت من على الأريكة، حاولت أن أمسك بها بأي طريقة، ثم كانت مستلقية على الأرض، فاستلقيت إلى جوارها.

ضممتها إلي. خلعت عنها ملابسها، لأن رائحتها كانت كريهة كما كانت مبللة. السُّجاد على حوائط المسجد، قسم النساء، وقسم الرجال، والمسجد الذي يتكون أساسًا من شقتين، في إحدى البنايات السكنية شبه المتهالكة. الباب الموارَب، الذي نظرت من خلاله، على السُّجاد ذو الكتابات الغريبة، وعلى أحجبة المصليات. وعندما بحثت عنها هناك، وعن شعرها الأشقر المائل للحمرة، الذي مرّرت أصابعي بين خصلاته، بحذر، كي لا أوقظها.

كنت قد جئت بها إلى سريري. كانت هناك، في مكانها الأصلي، حيث كانت لتكون ...

وقفت هناك أمام بنايتنا المرتفعة، عددت الطوابق، وحاولت أن أجد نافذتنا، وضربت الثلج بقدميّ.

كنت قد مددت ساعات العمل، وكنت أقدّم النبيذ الساخن. كان عمال البناء يجيئون ويروحون، كان النبيذ الساخن الذي كنت أصنعه بنفسي هو الأكثر مبيعًا. كان البلاط بديعًا، وتمنيت لو أن صديقي القديم ماريو يعمل معي على ذلك البلاط، الذي كان حامد قد دبّره لي.

كنت أحيانًا أحلم أحلامًا مشوّشة، وفي أحلامي ضعت بين أروقة بنايتنا متعددة الطوابق، ثم وصلت إلى الشقة التي كانت تسكن فيها مع حامد. كان الباب مفتوحًا، بل كان مواربًا فقط، فدخلت. كنا أحيانًا نشرب الشاي هناك، حامد إلى جواري، وهي جالسة على مقعد خلفنا عند الحائط. كم مرة التفت إليها. كانت تبتسم، وترفع يدها، وتشير بأصابعها كأنها تمسك بسيجارة بين السبابة والإبهام، ترفعها على مهل إلى شفتيها.

لكن الشقة كانت خالية. تجولت هنا و هناك، بحثت عنها. كانت غرفة نومهما تشبه غرفة نومي، ثم لاحظت أن النوافذ كانت جميعها مفتوحة. وفي حلمي تملكني الخوف، وجريت إلى إحدى النوافذ وملت إلى الخارج.

في تلك الأحلام المشوّشة، يصيبني خوف شديد من أن أراها هناك بالأسفل، حين أنظر إلى الخارج. مطعمي الأحمر الداكن يقع هناك بعيدًا، خلف البنايات متعددة الطوابق، ولا يشكل أي أهمية. وأنا أميل من النافذة، يعتريني الخوف، من أن أراها بالأسفل، راقدةً على سطح البناية المقابلة، أو راقدةً على الثلج. يطرق أحدهم الباب. ثم أستيقظ حينئذٍ.

"عليّ أن أذهب إلى البيت، عليّ أن أذهب إلى حامد."

"ابقي قليلًا. الأقمار!"

"ماذا يكون هذا؟ القمر؟"

"هذا أيضًا، أحيانًا يكون فوقها."

"هل لابد أن ننتظر حتى يحل الظلام؟"

"لقد أوشك أن يحل بالفعل."

"ضمّني إليك بقوة"

"حسنًا"

كلا، لم يكن أحد قد طرق بابي. وقفت أمام باب شقتها - فقد كانت في الطابق نفسه الذي أسكن فيه، كنا تقريبًا جيرانًا - ورننت الجرس، وبعد قليل طرقت الباب في حذر، لأنني لم أكن أريد أن أسمع ذلك **الرنين**، الذي بدا كأنما كان يدوّي في الرواق، لكنهما لم يفتحا، لا حامد، ولا هي. جاء الشتاء، وجاء الربيع، كنت أعمل لساعات طويلة، وأعود متأخرًا جدًا إلى البيت. ذات يوم كانا قد اختفيا، انتقلا لسكن آخر، غادرا البناية متعددة الطوابق، ووقفت أنا بالأسفل على الثلج الموحل، أعدّ الطوابق.

كنت قد أوصلتها لحامد، صبيحة تلك الليلة، التي وقفَت فيها أمام باب شقتي ثمِلةً، حين استلقت عاريةً في سريري، وحين كدت أن أُجنّ، لأنني كنت أرغبها بشدّة، رغم أنها كانت ثمِلة تمامًا. حين كنت أستلقي إلى جوارها.

غسلت أشياءها المتسخة، وجففتها على المدفئة، بينما كانت هي نائمة في سريري.

كل هذا مر عليه الآن وقت طويل، وأنا أستيقظ كل صباح مبكرًا وأذهب إلى مطعمي، أستقل سيارتي التي أصفّها هناك، عند سوق الجملة، وأتسوّق، أشعل الشوّاية، أقطّع اللحم، والبصل، والخضراوات، أعدّ ماكينة القهوة، أراقب االسيارات وركاب المواصلات في ضوء الصباح، والنهارات الطويلة، في الصيف والخريف، في ضوء المساء، أحب ليالي الشتاء الطويلة المظلمة، التي تبدأ مبكرًا؛ رائحة النبيذ الساخن ونقانق التورينجيا المشوية، وزبائن آخر اليوم ...

"لازلت تنتظرها، أليس محقًّا؟"

"كلا، لستَ كذلك يا ماريو"

"تفكر أنها قد تدخل في أي وقت من الباب"

"كلا، لا أفكر هكذا."

"دعك من المراوغة، واعترف؛ تفكر ولو قليلًا جدًا ..."

"ماريو!"

" قليلًا جدًا فقط، ليس كل يوم، لكن هكذا بين الحين والآخر ... بل كثيرًا، أليس كذلك؟

"اتركني وشأني يا ماريو، ما شأني أنا **بها ..."**

"حسنًا، حسنًا، والآن لا تغشني. ألستَ تنتظر؟ بلى إنك تنتظر."

"حسنًا، الأمر هكذا كما يكون أحيانًا يا ماريو."

"تمامًا، هذا ما أقوله، هكذا الأمر إذن كما يكون أحيانًا."

وكوني أفكر فيها، وفي مساءاتنا في بيت الدرج، وفي ضوء النهار، الذي كان يمكث طويلًا، وفي خُبوّ أضواء تلك الأقمار، وفي اختلاسي النظر عبر باب القسم النسائي الموارَب في المسجد، وفي تلك الليلة بعينها، فإن هذا لا علاقة له بأن كل ماهو ديني صار فجأة حاضرًا مرة أخرى. فما هو الحاضر أصلًا؟ إن الحاضر أسطورة، بل مصطلح خاطئ تمامًا، إننا نتواجد باستمرار في مكان آخر مجددًا، وأنا أعرف تمامًا عما أتحدث، فأنا أدير مطعمًا للأكلات السريعة، في مبنى منخفض، له مظلة، كان في الماضي محطة بنزين.